

ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية
""دار الطالب ""بفجيج شرق المملكة المغربية في
السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي
المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه
منها 1978



لم يكن سي "علي جي" أقل من "سي زايد" كفاءة أو حرصا ولا تأثيرا في الطلاب. كان معلما للعربية. متمكن من مادة تدريسه. كان متوسط الطول. على رأسه شعر لا يتجاوز جبهته العريضة. لا يفارقه معطفه، كأنه رسمي يدير مؤسسة حكومية. ميزه عن بقية المعلمين هناك في الثانوية حركاته بيديه وهو يشجع الطلاب على المشاركة في درسه. لا يتوقف عن ضرب كفيه بعضهما ببعض كمن يصفق، استنهاضا للغافلين من طلابه. يهب الطلاب على إثر صفيقهما يرفعون أصابعهم يناقشون حتى ولو لم يكن في جعبتهم ما يدلون به لديه. أحيانا، كانت كلماته من لهجة أهل مصر، مثل تلك التي كان تيمح يسمعها في المسلسلات المصرية حين حل التلفاز ضيفا عزيزا على بلده أخيرا. ظهر سي علي أكثر قربا من تيمح بسبب ما كان يبليه في درسه من اجتهاد حفظا ومشاركة. أمضى تيمح أسابيع لا يدري ما يحدث له. قل اجتهاده ونقصت مشاركته في الحصص. أصبح أكثر التلاميذ شرودا وغيابا عما يدور في الفصل. كانت هناك. في الصف الأول

المقابل للعبورة ،فتاة لا يقاوم حسننها
ممشوقة القوام يفتر ثغرها للناظرين
صار تيمح متيما بذلك الوجه السمع
النظيف يصعب عليه أن يفارقه .كانت
تلتفت إليه تغريه بحركات لا يفهم منها
سوى أنها لفتاة.تبتسم في وجهه ، لا تفوت
الفرصة في الحديث اليه وابداء الاعجاب
به وبلسانه الامازيغي .دخل سي ""جي
علي" الفصل ذات صباح وقد شمر
وتلاميذه على الجد والعمل .ضرب بكفيه
تشجيعا للتلاميذ على المشاركة في الدرس
،وإذا به يلاحظ شيئا غريبا .كان تلميذه
تيمح مصروفا تماما عما يقول ويفعل ،كان
مشغولا بلطيفة ينتظر أن تلتفت اليه
.""تيمح ""يقول سي علي بصوت مرتفع
.انتبه الطفل على وقع ذلك الصراخ العميق
المزلزل وقال ""نحن أستاذ"" "غادر
القاعة وانتظرنى ""يقول ""سي علي
""غاضبا .""لماذا أستاذ؟ماذا فعلت؟""لم
يزد ""سي علي ""كلمة واحد بل تركه
يكمل الحصه وجبهته العريضة قد ملئت
غضبا .بعد نهاية الحصه وما فرجت
أسارير الأستاذ ،حين هم تيمح بالخروج
باغته الأستاذ ""تيمح ،لا تخرج .انتظر

هناك لي حديث معك ""لم يكن تيمح يفهم
فيما كان بينه وبين لطيفة شيئاً. كانت مجرد
نظرات لطفلين معجبين. ""هل تريد أن
ترسب في الامتحان وانت في الرابعة
؟ أهكذا يكون من يريد أن يأخذ شهادة
""لبغوفي"" يقول ""سي علي"" منها
وموبخا ""ما ذا بينك وبين زميلتك لطيفة؟
يسأل ووجهه يكاذ ينفجر غيضا. ""زالو
""يقول تيمح في براءة الأطفال. ""أنا
أعرف كل شيء ""يرد ""سي علي"" أنت
لا زلت صغيرا ، عليك أن تبتعد عن هذه
الأمور. ما كنت أظنك هكذا. كنت أظنك
سهلا. ختم ""سي عل ""حديثه ناصحا
ومتوعدا. لم يكن تيمح يفهم شيئاً عدا أنه
يحب أستاذه ويحترمه ، عدا أنه معجب
بتلك الفتاة لدرجة الجنون لا غير. كان
معجبا بصورتها فقط. معجبا بحديثها
وبجراتها عليه. كان ""سي علي"" يعلم أنه
إن احتفظ بالطفل لوقت إضافي في الفصل
لحرمة وجبة ذلك اليوم ولن يجد تعويضا
لها. ""اذهب والحق بزملائك "" يقول
الأستاذ في رافة ""إن احتجت شيئاً أخبرني
""لم يستطع تيمح سوى أن يرد خجولا
تكاد الأرض تبتلعه ندما على ما كان

"واخا أستاذ ،واخا"" .مثل ذلك الموقف في عيني تيمح أسوأ لحظة في حياته الدراسية وعلاقته بمعلميه .في اليوم الموالي ،ذهب تيمح يطلب الصفح من أستاذة .عاهده على ألا يعود لما فعل .ظلت لطيفة تغازله عند كل دخول الى فصل "سي علي "دون أن يبادلها ما ترسله من رسائل الطفولة البريئة .لم يدر تيمح لماذا لم يعاقبها الأستاذ بمثل ما فعل معه .لم يكن يرغب في أن يقوم بذلك حتى يضمن استمرار تلك الحال ولو من جانب واحد .

وحدث أن حلق تيمح رأسه في آخر يوم من إحدى العطل المدرسية ،عطلة فصل الشتاء ،حيث البرد قارص .والريح الباردة تهب تلسع كل أذن وهو في مدينته .أرغمه أبوه في ذلك المساء على قص شعره حتى درجة الصفر .صارَت ""الصلعة ""لماعة حتى ولو لم يلمسها شعاع من شمس أو ضوء مصباح .ظهرت زرقاء من شدة كثافة الشعر الذي بها .بدت أذنا تيمح كبيرتين تعانقان السماء .كان يكره ذلك ،فأطفال الحي كثيرا ما كانوا يسخرون منه بسبب طولهما كما كانت عليه الحال في قرينته قبل اثنتي عشرة سنة خلت .

كان الغد يوم دراسة، والحصة الأولى من تلك الفترة الصباحية كانت لمعلمه "سي علي جيه". خاف أن يضحك منه الطلاب في الفصل وخصوصا منهم الفتيات. ولطيفة على وجه التحديد أكثر. كن كبيرات طويلات القامة جميلات. ينجذب بسبب جمالهن الى كل عين. لم يكن تيمح ليرضى أن تسخر منه إحداهن، وخاصة اولئك الزميلات اللاتي كن يحترمنه كثيرا ويحترمنهن. معجبا بهن ومعجبات به والشعر الأسود ينساب رقراقا على كتفيه وجبهته ويحيط بوجهه الأبيض الدائري الفتان. دخل تيمح الفصل صبيحة ذلك اليوم المشرقة شمسها. الفاتر ضوءها. جلس على مقعده الذي توسط قاعة الدرس الى جانب زميله "موساوي". كان يضع على رأسه قبعة صوفية تخفي كل شيء منه. اختفت داخلها أذناه الكبيرتان تماما فاطمان لذلك كل الاطمئنان. ود كثيرا لو يغفل "سي علي" عن قبعته فلا يطلب منه ازالتها. تمنى لو يعمى بصره وبصيرته عنها فلا يضطره لخلعها. لكن، لسوء حظه، خاطبه سي علي والجميع منتبه اليه يقول ""انزع تلك القبعة من على

رأسك وانتبه ""اهتزت أركان تيمح حين
سمع ما سمع .نزل عليه الأمر كأنه ضربة
من مطرقة صلبة .خاف أن يخلعها فتقوم
ضجة من الصخب في الفصل سخرية
واستهزاء به .خاف أن ينزعها فتكشف
لطيفة زيف جماله .عاود ""سي علي
""الأمر كرة ثانية ،فاذا بتيمح ينزع غطاء
الاحترام والأدب ويقول :""لا لا أستطيع
ذلك ""كرر الأستاذ الأمر والطلاب كلهم
ملتفتين اليه يتابعون الحدث عن كثب
.يشتاقون الى معرفة نتيجة تلك المعركة
الكلامية بين الأستاذ وتلميذه .لم يتنازل
تيمح عن موقفه بل رد عليه يقول وقد
احمر وجهه خجلا وخوفا ""لا أريد
""انتبه الأستاذ وقد قطع درسه لعدة دقائق
الى ذلك التحدى غير المؤلف .غير
المعقول وهو من يعرف خصال تيمح جيدا
.كانا قبل الحلق صديقين . قال "سي علي"
""اجلس ،خذ مكانك وانتظرني بعد نهاية
الحصة .لا تغادر"" .ارتعدت فرائص
تيمح .أصابه الذعر والاستحياء وأغلب
الطالبات يرمقنه بنظرات الازدراء
والشفقة .كان تيمح يفكر في معدته الفارغة
.في الوجبة التي قد تطير من بين يديه إن

بقي مع الأستاذ لوقت طويل .كان جائعا جدا والحصص الأخرى ستتوالى تباعا .دقت الثانية عشرة ظهرا . على تيمح أن يعود الى أستاذه .إنه موقف محرج حقا .سأل الاستاذ ""علي والطلاب قد غادروا ""لماذا لم تنفذ ما طلبت منك وأخرجتني أمام الطلاب .هل ترضى أن يقل احترامهم لي بسبب ما أقدمت عليه ؟""قال تيمح مستعطفا ""اعذرني ،أنا لم أقصد ذلك ، فاذناي طويلتان ، وخشيت أن يسخروا مني ""نزع سي علي القبعة الصوفية من على رأس تيمح ثانية ,جال ببصره يتفحص ذلك الرأس الذي بقي بلا غطاء . صار يتأمل الأذنين ثم قال :""هل تعلم ، أنت أجمل مما كنت عليه والشعر على رأسك " ابتسم تيمح بينما تابع الأستاذ ""أذناك طبيعيتان ،لا أرى فيهما أي غرابة مما تظن.غدا إن شاء الله ،لن أرى القبعة على رأسك ثانية. تصرف بشكل طبيعي ولن يعبا أحد بما تحذر منه وتتحاشاه .كان ""سي علي جي ""مدرسة في التربية والتعليم والخلق الكريم .كان درسه لتيمح في ذلك النهار وأمام هؤلاء الطلاب بليغا أرشد تيمح في بقية حياته ،أبغله أن الجمال

ليس في الجسد ،بل هو الجسد الذي يتزين
بالخلق والعلم والجد .أرشده الى الرضى
بما قسم الله له . علمه أن يقبل بصورته كما
هي ،كما خلقها الله .تعلم تيمح من ""سي
علي ""أصول اللغة العربية .كانت
حصته ورشة لصناعة الفكر ،وبناء
الشخصية المتوازنة الشجاعة .

. منذ اليوم الاول من السنة الرابعة بثنائية
سيدي عبدالجبار بفجيج ،و في الفصل
الخاص بمعلم مادة الرياضيات ""سي
مكاوي""حجز تيمح مقعده في مقدمة
الصف على اليمين،لا يفصله عن مكتب
الاستاذ سوى سنتيمترات قليلة .كان ضعيفا
في الرياضيات لحد الجهل التام بها ،ومع
ذلك ،تجراً وقعد قريباً منه .كان السي
""مكاوي ""رجلاً معتدل الطول، يمتد
شعره فيغطي كامل رأسه دون أن يخفي
أذنيه .وجه بشوش كأنه رجل من الشرق
الأقصى ،من الصين أو اليابان. لباسه
قميص وبنطلون وحذاء ينسجمون مع
قامته .تضفي عليه روح الشباب خفة
ورشاقة وأناقة جذابة .كان متخصصاً في
الرياضيات ؛وخصوصاً في هذا المستوى
بالضبط. عرف عليه في أوساط الطلاب

براعته في تقديم دروس مجموعة "R" الصعبة والمعقدة .يتحدث الفرنسية بسلاسة لا تفارق لسانه اثناء الدرس .هو مثل السي ""زايذ"" كان يداوم على دعوة الطلاب الى الخروج الى السبورة لحل المسائل التي كان يطرحها .لم يكن في نيته احراج طلابه أكثر من كونه رغب في التثبت من مدى تتبعهم لدرسه وفهمهم لشرحه .كان تيمح ممن يتابعون درسه .لا تشغله شاغلة عن ذلك ولا حتى لطيفة منقذته . لم يكن يفهم شيئاً مما يقدمه الأستاذ .يقف السي ""مكاوي"" خلف آخر مقعد من الفصل .يضع إحدى رجليه على الحائط فلا تحمل جسده سوى واحدة .ترتفع سيجارته بيد عارية الى فمه . يتصاعد دخانها مبتعدا ينتشر حول القاعة وقد سافرت عيناه الى عالم "فيتاغوراس"واقليدس"" . لا يفوته ان يتابع انجاز من يقف هناك في السبورة غارقا في محاولة فك رموز المعادلة .كان ينظر فقط من بعيد .يقرأ ،يحسب ،يحلل في صمت .قليلاً ما يتدخل موجهها أو مصوباً .لقد درب طلابه على الانتباه الى من على السبورة .يصوبون يصححون يساعدون

كان تدرييا صارما يمنع طلابه من الشرود أثناء الدرس والإنجاز ..عند العودة الى دار الطالب في المساء ،كان تيمح يضع محفظته أسفل سريره ،ثم يغادر صوب المحطة الطرقية القديمة .يذهب هناك ليرى المسافرين القادمين من بوعرفة عسى أن يجد منهم من يعرفه فيمده ولو بدرهم يشتري به رغيف ""اسفنج"" من دكان السفاج على مسافة من دكان ""باحي"" على الشارع .كان ""سي مكايي"" يرتاد دكان ""باحي"" باستمرار عند كل مساء .يجلس على كرسي من خشب خارج الدكان ووجهه الى الطريق .تمتد عيناه فتلتقطان كل من يدب من الطلاب من على يساره ويمينه بإحكام .كان تيمح يتوجس خيفة كلما رمقه من بعيد هناك .كان يعود أدراجه الى الداخلية اتقاء لما قد يسببه وجوده من مشاكل جمّة . في ذلك المساء ،رآه هناك .خاف أن يلّمحه .كان المعلمون على ذلك العهد اذا مر بهم أحد الطلاب في الشارع ،تذكروه في الغد ووبخوه وطالبوه بحل أصعب المسائل عقابا على تجواله او فقط عن مجرد خروجه .بقي تيمح متسمرًا

في مكانه من المحطة حتى غادر استاذة ،
انزلق بعدها يجري بأقصى سرعة .وصل
الداخلية فوجد الباب موصدة .عوقب عقابا
شديدا قبل أن تفتح له .أصبح الشارع
ممنوعا عليه وعلى أقرانه ووجود ""سي
مكاوي ""في ذلك الدكان .في آخر يوم من
أيام السنة الدراسية بفجيج ،وكانت آخر
حصة من حصص الرياضيات ،بينما كان
تيمح يجلس ويداه على المقعد ،وعيناه
شاخصتان يتابع شرح الأستاذ ،إذا به يسمع
صوتا ينادي عليه ""تيمح ،قم الى السبورة
""لم يدر تيمح أكان ذلك النداء من داخل
الفصل ام من خارجه .أكان هو المقصود
به بالذات أم كان ذلك فقط من وحي خياله
.عاود الصوت المناداة من جديد .تأكد
تيمح أنه المقصود فعلا بالنداء، فقام من
مكانه صوب السبورة .طيلة شهور السنة
الدراسية ،لم يطلب الاستاذ من تيمح القيام
الى السبورة .فلماذا قام بذلك اليوم ؟،أصبح
الأمر واقعا لا مجال للبحث فيه .الأجدر به
ان يفكر في الحل .وقف أمام السبورة
السوداء ،أمسك بين أصبعيه طبشورة ،بدأ
بقراءة المسألة أولا ،وهو أمر كان سهلا ؛
وقف بعدها ينتظر العون . لم يدم انتظار

الغوث طويلا ،بدأت الكلمات تتوارد عليه
من الطلاب ممن هم في الصف الأمامي
وأغلبهم من الطالبات.كان الأستاذ ينظر
فقط ويتابع .كانت صالحة ولطيفة يمطانه
بالعون اللازم حتى يسرع في مغادرة ذلك
المكان ويتخلص من ذلك الموقف الصعب
.وضع تيمح نقطة على السطر ،ثم وضع
الطبشورة في مكانها من السبورة ،انسحب
في هدوء دون أن يرفع عينيه في معلمه
.في الغد غادر مدينة فجيج ،وقد بدأت
العطلة الصيفية. انتهى الموسم الدراسي
لذلك العام ، لكن صور ""سي علي جيه""و
سي ""الطيب زايد"" و""سي مكاي
""بقيت ماثلة في عقله ومخيلته عالقة بها
لا تفارقها .